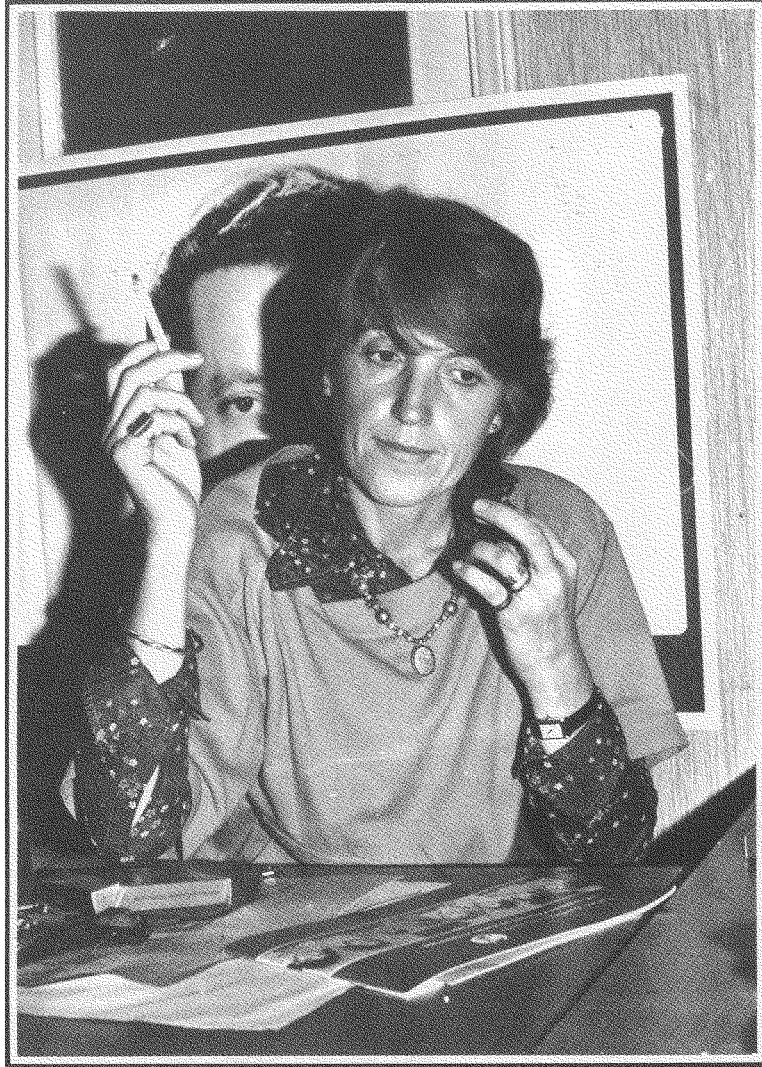


قصة غسان كنفاني

زوجته
الدانمركية
آني

كما
ترويها



في الذكرى
الأولى لرحيل
غسان

فايز ولاينة أخت غسان وأخيها. كان الثلاثة يلعبون داخل المنزل ذلك الصباح. وكان على لميس، ابنة أخت غسان، أن ترافق خالها إلى وسط البلد للمرة الأولى منذ وصولها من الكويت بصحبة أمها وإخوتها لأسبوع خلا؛ فقد كانت تعدّ العدة لزيارة أقرانها في بيروت. لكنّها لم تفلح في الوصول إلى هناك أبداً. فما هي إلاّ دقيقتان على تقبيل غسان ولميس إيانا قبله «إلى اللقاء» حتى دوى انفجار مريع.

تطايرت نوافذ البيت جميعها. انحدرت بسرعة، لأجد أشلاء

صباح الاغتيال، جلسنا جميعنا أطول من العادة، نشرب قهوتنا التركية على الشرفة. وكان لدى غسان - كما هو دأبه - الكثير من الأمور للتحديث عنها، وكنا - كما هو دأبنا دوماً - حاضرين للاستماع. وكان يجبرنا ذلك الصباح عن رفاقه في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثمّ بدأ يتحدث هو وأخته فايزة عن طفولتهما في فلسطين.

قبل أن يغادر متوجّهاً إلى مكتبه، أصلح القطار الكهربائي لابنا

التي واجهتُ فيها المشكلة الفلسطينية من خلال لقاءاتي ببعض الطلاب الفلسطينيين. وعند عودتي إلى الوطن التحقتُ بـ «جامعة الشعب العالمية في الدامر» حيث واصلتُ نقاش تلك المشكلة مع زملائي الطلاب. وسافر بعضنا إلى لندن وشارك في مسيرة آلدرماستون التي نظمها أنصار نزع الأسلحة النووية بقيادة برتراند راسل. وحين توفي برتراند راسل عن سبعة وتسعين عاماً كان ما يزال يُقاتل من أجل العدالة - وهذه المرة من أجل الفلسطينيين.

في صيف آلدرماستون ذلك، عدت إلى يوغوسلافيا بصحبة فرقة فولكلورية دائرية شهيرة، هي «تينكلوتي»، وهي فرقة قد كنت عضواً فيها لسنتين عشر. وقد التحق بعضنا بمخيم عمل عالمي حيث التقينا بطلبة اسرئيليين، ثم التقينا في مخيم آخر بطلبة عرب؛ وتحدثنا عن المشكلة الفلسطينية مع الفريقين كليهما.

في أيلول ١٩٦١ ذهبت إلى سوريا ولبنان لكي أدرس المشكلة الفلسطينية عن كثب. وفي بيروت، عرّفوني إلى غسان كنفاني، وكان آنذاك واحداً من محرري المجلة الأسبوعية العربية «الحرية». وكانت المجلة ناطقة باسم «حركة القوميين العرب»، وكان غسان محرراً للشؤون الفلسطينية فيها.

حين سألت «غسان» أن يأذن لي بزيارة بعض مخيمات اللاجئين، تملكه الصمت. وبعد هنيهة صرخ غاضباً «أوتحسبن أن شعبنا الفلسطيني حيوانات في جنية حيوانات؟!». ثم شرع بالتفسير، فتحدثت عن شعبه وعن وطنه؛ تحدثت كيف أن الأمم المتحدة نقضت ميثاقها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧^(١) حين قسّمت فلسطين خلافاً لإرادة سكّانها العرب (الذين كانوا يشكلون آنذاك ثلثي حجم السكّان، وكانوا يملكون أكثر من تسعين بالمئة من الأراضي)؛ وتحدثت كيف أن دولة آسيوية واحدة (هي الفيليبين) ودولتين إفريقيتين اثنتين (هما ليبيريا وجنوبي إفريقيا) صوتت لصالح قرار التقسيم، وأن الدولتين الأوليين قد مورس عليهما ضغطاً شديداً من قبل الولايات المتحدة لحملهما على مثل ذلك التصويت. وعلى هذا النحو، تمّ زرع دولة اسرئيل الصهيونية الكولونيالية بالقوة في تخوم العالم الثالث الناهض، من غير أن تتلقّى اعترافاً طوعياً من أيّ دولة عربية أو آسيوية أو أفريقية، باستثناء جنوبي إفريقيا العنصرية.

وتابع غسان يحدّثني عن فلسطينه الحبيبة، وعن اضطرابه إلى

(١) ليس في ميثاق الأمم المتحدة مادة تسمح للهيئة الدولية بتقسيم أيّ بلد خلافاً لإرادة شعبه. إنّ تقسيم فلسطين هو حدث فريد في تاريخ الأمم المتحدة؛ بل إنه المثال الأول والأوحد على خرق الميثاق.

سيارتنا الصغيرة تحترق. وجدنا «لميس» على بعد بضعة أمتار، ولم نجد غسان. ناديته باسمه، ثم اكتشفت ساقه اليسرى. وقفتُ مشلولة، فيها راح فايز يضرب برأسه الحائط، وردّدت ابتنا ليلي النداء تلو النداء: «بابا، بابا...»

وبالرغم من ذلك فقد ساورني أمل ضئيل بأنه قد أصيب إصابة خطيرة ليس إلّا. لكنهم عثروا عليه في الوادي، قريباً من منزلنا، ونقلوه بعيداً عنّا، وفقدت الأمل في أن أراه مرةً أخرى.

قعد أسامة قرب جسد أخته الميتة، وقال لها: «لا تجزعي، يا لميس، ستكوين بخير، وستعلميني الانكليزية من جديد...»

وفي المساء قالت لي صغيرتنا ليلي: «ماما، سألت البابا أن يأخذني معه في السيارة لنشتري شوكولاتة، لكنّه كان مشغولاً، فأعطيني لوحاً كان يحتفظ به في جيبه. ثمّ قبّلتني وطلب مني الرجوع إلى المنزل. جلست على درج بيتنا لأكل الشوكولاتة، وحصل دويّ كبير. لكن، يا ماما، لم تكن تلك غلطة البابا؛ إنّ الاسرئيليين هم الذين وضعوا القبلة في سيّارته.»

أنا أرملة غسان كنفاني - واحد من شهداء الثورة الفلسطينية العظام.

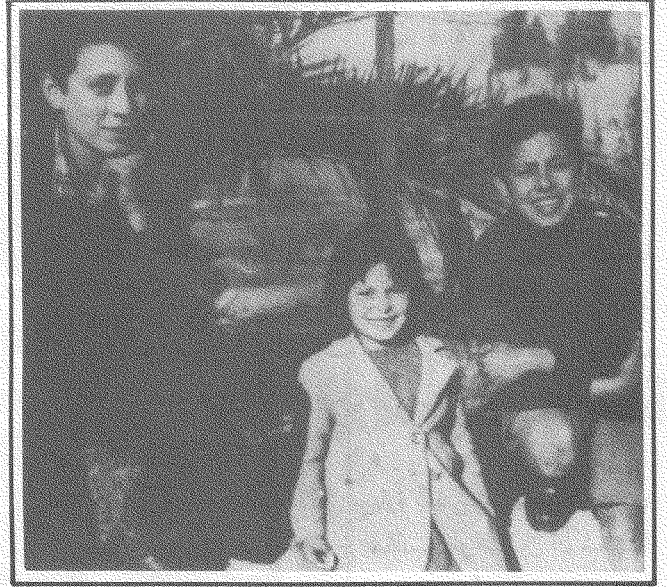
وطني الأصلي هو الدامر. أستطيع أن أذكر بغموض الاحتلال الألماني الذي بدأ في ٩ نيسان ١٩٤٠. فقد انخرط أي في حركة المقاومة، أسوةً بغيره من الرجال والنساء الدامركيين. وقدّم كثير من المقاتلين الأحرار حياتهم آنذاك، وآل بعضهم إلى سجون «الغستابو» ومعسكرات التصفية أثناء نضالهم ضد الاحتلال الألماني. وكان الألمان يلقّبون المقاتلين الدامركيين الأحرار بـ «الإرهابيين»، وهو الافتراء عينه الذي ترمي به القوى المحتلة قاطبةً الشعوب المقهورة التي تقاوم الاحتلال وتشرع في النضال من أجل حرّيتها واستقلالها. بل إنّ حركة المقاومة الدامركية كانت قد ساعدت على إنقاذ اليهود أنفسهم من النازيين الألمان.

حين تأسست اسرئيل في ١٥ أيار ١٩٤٨، كان الدامركيون - شأنهم في ذلك شأن معظم الشعوب الأخرى في العالم «المتحضر» - يتحلّون بفضيلة الجهل. لقد سمعنا شيئاً عن «اللاجئين العرب»، غير أنّ أيّاً منّا لم يدرك أنّ ذلك أنّ شعباً بأكمله قد دفع الثمن. وكان عليّ أن أنتظر اثنتي عشرة سنة قبل أن أعني وجود شعب فلسطيني طرد من وطنه الأصلي بمعونة القوى العظمى - وبشكل أساسي: بمعونة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

في عام ١٩٦٠ شاركتُ في مؤتمر عالمي للأساتذة، وشاركت لاحقاً في مؤتمر للطلاب في يوغوسلافيا. وكانت تلك المرة الأولى

مغادرتها عام ١٩٤٨ بصحبة أهله وأشقائه وشقيقاته الخمسة.

وُلِدَ في عكا في ٩ نيسان ١٩٣٦، في بداية الثورة الفلسطينية العربية ضد القوات الصهيونية وسلطة الانتداب البريطاني. وأثناء الثورة، قام الفلسطينيون العرب بإضراب عام - لعله أن يكون الأطول في التاريخ - استمر ستة شهور. وحين أخذت الثورة عام ١٩٣٩، كان ٥٠٣٢ عربياً قد قتلوا و ١٤٧٦٠ قد جرحوا، وشق مئة وعشرة أشخاص على يد السلطات البريطانية.



مع أخيه مروان، وأخته الصغرى سهى

سكان الأحياء اليهودية في القدس لكي يصفقوا عليهم. وقد أفرج عن الأسرى في فترة لاحقة، فعادوا إلى بيوتهم ليتحدثوا عن مصائبهم، فيما راحت السيارات المجهزة بمكبرات الصوت تجول في القرى العربية معلنة أنه «إن لم تغادروا بيوتكم، فسوف يكون مصيركم كمصير دير ياسين». وكتب مناحيم بيغن: «إن المجزرة لم تكن مبررة فحسب، بل إن دولة إسرائيل ما كانت لتكون على قيد الحياة لولا الانتصار في دير ياسين.»^(١)

إن تكن هجرة الفلسطينيين خطة مدبرة فهذا أمر أكده العميد غلوب، إذ يروي حواراً دار بين ضابط بريطاني في «الفيلق العربي الأردني» ومسؤول يهودي في «حكومة فلسطين» في كانون الأول. فقد سأل الضابط البريطاني ما إذا كانت الدولة اليهودية الجديدة ستواجه متاعب داخلية كثيرة نظراً لتساوي عدد السكان العرب فيها بعدد السكان اليهود؛ فأجاب المسؤول اليهودي: «آه، لا! سوف ندبر هذا الأمر. إن بضع مجازر محسوبة بدقّة سوف نخلصنا منهم.»^(٢)

إن اسم «ليديس» الفلسطينيين ليس «ماي لاي»، بل دير ياسين. وقد وقعت المجزرة في ٩ نيسان ١٩٤٨ - وصادف ذلك عيد ميلاد غسان الثاني عشر. ومذاك، لم يحتفل غسان بعيدِه قط. وفي مثل هذا اليوم من كل سنة، أقفُ - أنا أرملة غسان - بخشوع أمام أرواح غسان والضحايا الأبرياء الذين سقطوا في مجزرة دير ياسين قبل خمسة وعشرين عاماً. وفي ذلك اليوم بالذات من عام ١٩٤٠، تمّ احتلال وطني (الدانمرك) على يد النازيين الألمان.

غادرت عائلة غسان عكا قبيل ١٥ أيار ١٩٤٨؛ وكان حوالي ثمانمئة ألف عربي قد فرّوا من الإرهاب الصهيوني آنذاك. واستمرّ العرب في الهجرة، يتقدمهم الأطفال والنساء؛ فقد بقي الرجال ليدافعوا عن القرى والمدن. وما لبثت يافا وحيفا واللد وغيرها أن نُظِّفت (والتعبير هو لإيغال ألون) من سكانها العرب.

عندما طردت عائلة غسان من فلسطين، كانت صفّر اليريدين. وقد اختار الأب أن يبقى في قرية لبنانية صغيرة - هي الغازية - قريبة من الحدود. فالحال أنه أراد أن يكون بين أوائل العائدين إلى منازلهم بعد انتهاء القتال، على نحو ما نصّ قرار الأمم المتحدة بصدد اللاجئين الفلسطينيين (وهو القرار رقم ١٩٤، الفقرة الثالثة، الصادر في ١١ كانون الأول ١٩٤٨). ونحن نعلم جميعاً أن مثل

أخبرني غسان عن الإرهاب الإسرائيلي وكيف أجبر شعبه على هجرة أرضه. وكانت مدينته عكا قد خصّصت للسكان العرب، حسب خطة التقسيم التي أرستها الأمم المتحدة. غير أن عكا، أسوأ بكثير من المدن والقرى الفلسطينية، خضعت لاحتلال القوات الصهيونية، وهجر سكانها بالقوة الجسدية والنفسية. وأصيب عرب فلسطين آنذاك بالذعر الشديد بعد مجزرة دير ياسين، القرية المسالمة العزلاء. ويروي جاك دورينير، ممثل الصليب الأحمر الدولي، في تقرير شاهد عيان أن ٢٥٤ امرأة وطفلاً وشيخاً قد دُبحوا بوحشية وعن سابق عمد، وقذفت المجموعتان الصهيونيتان الارهابيتان الايرغون وشترين بجثث الكثير منهم إلى إحدى الآبار. ولقد وصفت السلطات الصهيونية الرسمية تلك المجزرة «بالحادث». أما الايرغون - بزعامة مناحيم بيغن الذي شارك في عدّة حكومات اسرائيلية لاحقة وترأس إحداها - فقد دعت إلى مؤتمر صحفي أعلنت فيه تفاصيل الحدث، في الوقت الذي كان فيه قرويّو دير ياسين الأسرى الذين بقوا على قيد الحياة يُستعرضون عراً أمام

(١) Menahem Beigin, *The Revolt* (New York: Henry Schuman, 1951).

(٢) Sir John Bagot Glubb, *A Soldier with the Arabs* (New York: Harper and Brothers, 1957).

حش «غسان» بمغادرة الكويت والمجيء إلى بيروت للعمل في الحرية.

منذ الأيام الأولى للقائي بغسان، أحسست بأنني إزاء إنسان غير عادي. وتطوّرت علاقتنا من خلال القضية الفلسطينية إلى علاقة شخصية. ورغم وضعه الذي لا يبعث على الأمان - فغسان الفلسطيني لم يكن يملك جواز سفر، ولا مالاً، وكان يعاني فوق ذلك من مرض لا شفاء منه هو السكرى -، فإننا ما لبثنا أن اكتشفنا أنّ الموت وحده سوف يكون قادراً على تفريق الواحد منا عن الآخر.

وشرعتُ بالتدريس في روضةٍ للأطفال. وما هو إلا شهر على وصولي إلى لبنان حتى تزوّجنا - ولم يندم أيّ منا على ذلك - وكان لنا كمعظم الفلسطينيين الآخرين، مصاعبنا، الاقتصادية وغير الاقتصادية. وفي كانون الأول عام ١٩٦٢ أضحى الوضع السياسي شديد الاهتزاز، فكان على غسان أن يبقى مختبئاً في المنزل لفترة تزيد عن الشهر، وذلك لافتقاره إلى الأوراق الرسمية. وأثناء هذه الفترة، كتب رواية رجال في الشمس التي طار صيتها في معظم أرجاء العالم العربي؛ وأهداها إليّ.



آني وغسان، القاهرة ١٩٦٤

هذا القرار لم يُنفذ؛ فقد منعت السلطات الاسرائيلية الفلسطينيين العرب من العودة. لقد أراد الصهاينة الوطن، لا شعبه، وكانت مثل هذا الرغبة كامنة منذ بداية إنشائهم الكيان الصهيوني.

وانتقل أبو غسان مع جميع أفراد عائلته إلى قرية جبلية في سوريا تدعى الزبداني. وكانت الحياة هناك قاسية، وكان الجوع والبرد وجبتهم اليومية. وانتقلوا لاحقاً إلى دمشق، وشرع غسان وأخوه الأكبر بتجميع الكتب أملاً في كسب القليل من المال الذي يعينها على عول عائلتها المؤلفة من ثمانية أشخاص بالإضافة إلى ثمانية أشخاص آخرين يعيشون معهم. وما لبثنا أن تابعا دراستهما في مدرسة مسائية بعد أن كانا قد عملا طوال النهار.

كان غسان آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، وكانت أخته فايضة (أم لميس) قد حصلت على الشهادة الثانوية، وذهبت عام ١٩٥٢ إلى الكويت حيث صارت واحدة من أوليات المعلمات، وواحدة من الفلسطينيين الكثر الذين أسهموا في نمو الدول العربية بصفقتهم أساتذة ومهندسين وأطباء وغير ذلك.

وبعد أن نال غسان شهادة البريفيه في السادسة عشرة من عمره، شرع بالتدريس في مدارس الأونروا. وكان، مع أستاذ آخر، مسؤولين عن تعليم ألف ومئتي طفل فلسطيني لاجئ؛ غير أنّ هدف غسان الأعظم قد كان توعية أولئك الأطفال توعية سياسية. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، صار سبعون في المئة من تلاميذ غسان في مدارس الأونروا مقاتلين.

قبل أن يلتحق غسان بمدرسة الأونروا، عمل في مطبعة في دمشق. وفي سنة ١٩٥٥ طلبت منه «حركة القوميين العرب» أن يعمل في تحرير جريدتها الرأبي وفي طباعتها. وانتسب إلى «الحركة» في ذلك العام.

وفي العام التالي، لحق بأخته فايضة وأخيه غازي في الكويت. وأرسل ثلاثتهم أكثر روايتهم إلى عائلتهم في دمشق. وهكذا توقّف للوالد دخل شهري يعول به بقية أفراد العائلة، وحصل - في تلك الفترة كذلك - على إذن بالعمل في سلك المحاماة في دمشق، وكان أكثر زبائنه من الفلسطينيين المدقعين. وواصل غسان، خلال السنوات الست اللاحقة التي قضاها في الكويت، نشاطه السياسي. وكان يُدرّس الفنّ والرياضة، ولقد أثبتت تلك السنون أنها جزء هام جداً في حياته. فقد قضى معظم أوقات فراغه في الرسم والكتابة والقراءة، وانصبت أكثر قراءاته على السياسة: فقرأ ماركس، وانجلز، ولينين، وغيرهم. وفي عام ١٩٦٠، أُنقح الدكتور جورج

العربية؛ و«ليل»، إضافة إلى ذلك، اسم اسكاندينافي معروف في
أوساط اللآبيين في المنطقة القطبية الشمالية.

أحبَّ غَسَّان طفليه حتَّى العبادة، وغالباً ما كتب عنهما. وعلى قصر
الزمن الذي قضاه معنا، فقد كان يلعب معهما مراراً ويعلمهما أشياء
كثيرة. ولقلماً فقد أعصابه، ولم يضرهما قطُّ. واتَّسع سروره برفقتها
ليشمل أصدقاءهما، وغالباً ما قادهم جميعاً في سيارته إلى السينما أو
شاركهم ألعابهم في منزلنا.

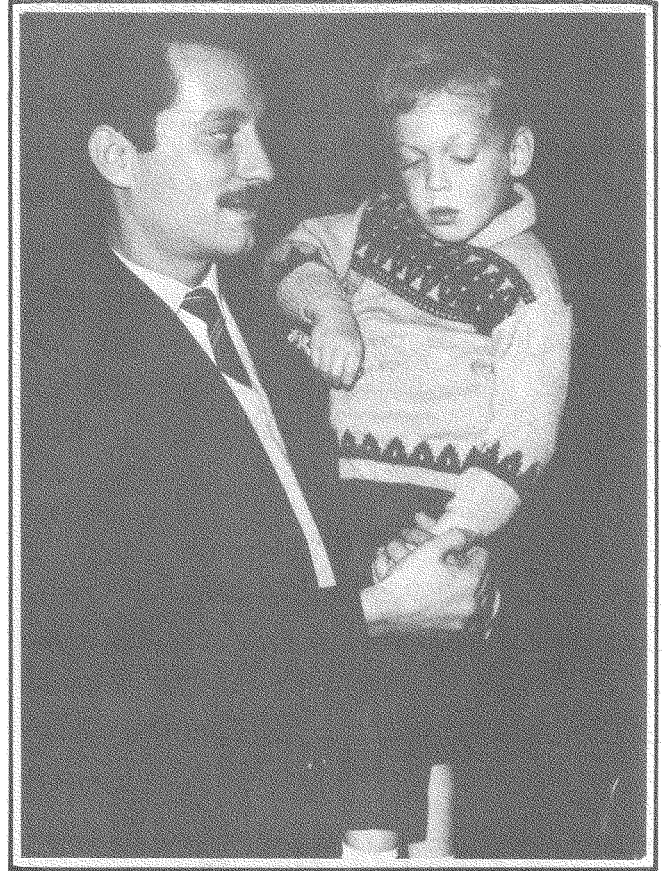
قبل حرب حزيران ١٩٦٧ بأسبوع واحد، توفيت أمُّ غَسَّان فجأة
في دمشق بعد إصابتها بذبحة قلبية. لكنَّه لم يذرف دمعاً واحدة
طوال ماتمها، على صدق حبه العميق لها؛ بل إنَّه حاول أن يبتَّ
العزيمة في أبيه وفي أفراد العائلة الآخرين. غير أننا أثناء رجوعنا إلى
بيروت، انهار غَسَّان؛ ولأوَّل مرَّة في حياتي، شاهدت دموعاً في
عينيه.

وعندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر استقالته عقب حرب
حزيران، وبعد أن فقد الكثيرون الأمل، رفض غَسَّان أن يخضع
للاستسلام. لقد كان في اللحظات الدقيقة قوياً بشكل لا يُصدَّق،
وكان يحاول أن يُعطي شيئاً من هذه القوَّة للآخرين. وكان يعبرُ
لاحقاً عن مشاعره بالكتابات السياسيَّة والأدبيَّة.

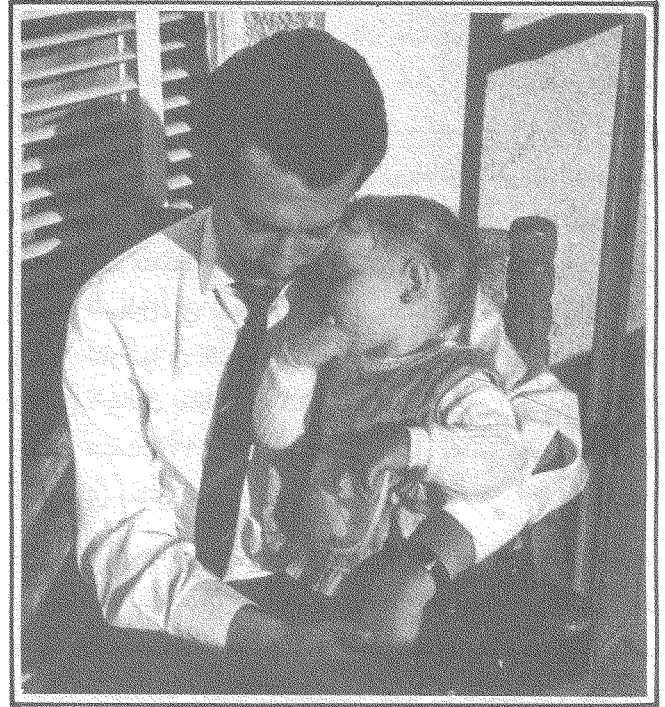
لم يساورني أدنى شكَّ في أيِّ لحظة من اللحظات في أنَّ غَسَّان قد
اختار الطريق السليم. ولو أنني حاولت أن أمنعه من مواصلة نضاله
والتزامه السياسيِّين، لَبقي لي زوجي، غير أنه ما كان سيكون ذلك
الإنسان المرهف الشريف الذي أحببته وأعجبتُ به.

حاولت ما في وسعي أن أشارك غسان في نضاله؛ فمت
بأتصالات مع أشخاص يعيشون في الغرب ويهتمون بمعرفة حقيقة
النضال الفلسطيني. وطلبت مني مجلة دائمة يسارية أن أكتب
مقالة تشرح خلفيَّة فلسطين؛ وكانت تلك المقالة واحدة من مقالات كثيرة
غيرها كتبها لاحقاً. ومنذ حرب حزيران كتبت المئات من الرسائل إلى
أصدقاء قدامى وجدد في اسكاندينافيا وغيرها من البلدان. وكانت إحدى
مراسلاتنا مع الكاتب اليهودي الشهير المعادي للصهيونية موشي مانوحن
الذي يسكن في الولايات المتحدة ومؤلف انحطاط اليهودية في زمننا. وقد
اعترناه صديقاً من أصدقائنا الشخصيين.

في خريف ١٩٦٧، التحق غَسَّان بهيئة تحرير جريدة الأنوار -
وكانت آنذاك جريدة طليعية ناصرية الاتجاه - وأصبح رئيس تحرير
ملحقها الأسبوعي. وكان قد بدأ كذلك بالقيام بدور قيادي في
النشاطات الإعلامية الفلسطينية وتلك التي تقوم بها الجبهة الشعبية
لتحرير فلسطين. وغدا من المعلوم أن كلَّ جريدة أو مجلة يساهم
غَسَّان في كتابة مقالاتها وافتتاحياتها يلحقها ارتفاع في مستواها وفي
نسبة توزيعها. وراحت السفارة الفرنسية وغيرها من السفارات في



مع ابنه فايز (١٩٦٤)



غَسَّان وابنته ليلي

بيروت تترجم مقالاته الأسبوعية في الأنوار، لما تتضمن من تحليل سياسي دقيق.

غير أن غسان قرّر عام ١٩٦٩ أن يترك وظيفته الآمنة في الأنوار لكي يبدأ المجلة السياسية الأسبوعية الهدف، مع أن مثل هذا القرار عنى انخفاضاً في الدخل. لكن «غسان» لم يعمل لاعتبارات مادية؛ فقد كان الإلهام الذي يدفعه للكتابة والعمل المتواصل هو النضال الفلسطيني/العربي وتحرير فلسطين. وفي تموز ١٩٦٩ صدرت الأعداد الأولى من الهدف برئاسة تحرير غسان. وكان على يقين أن المجلة سوف تنقل رسالة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والقوى التقدمية الأخرى إلى الجماهير العربية والرأي العام العالمي. وكان على حق. فلقد تحولت الهدف في الستين اللاحقتين إلى واحدة من أفضل المجلات السياسية الأسبوعية في العالم العربي قاطبة؛ واقتبس الكثير من كلماتها، وترجم عدد كبير من مقالاتها وافتتاحياتها إلى لغات أخرى.

ولقد شارك غسان - بصفته منظرًا سياسيًا - في وضع البرامج والبيانات السياسية الصادرة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان يقوم بأكثر عمله في المنزل لكي يكون على مقربة من. وصمم الكثير من ملصقات «الجبهة الشعبية»، وكتب الكثير من المقالات في المنزل، حيث كان «فايز» و«ليلي» عاملين متطوعين سعيدين بروية أبيهما يرسم ويلون.

واستمر غسان في الكتابة بدون انقطاع، مقدّمًا لهدف الكثير من إسهاماته. وحين أصبح الناطق الرسمي باسم «الجبهة الشعبية»، تناقص الوقت الذي كان يكرسه لي وللأطفال؛ وهكذا فقد كان الوقت الذي نقضه معاً ثميناً جداً. ولم تكن لدي الرغبة في إيقافه عن العمل السياسي. فالحال أن رفاقه كانوا يقدمون حياتهم، يوميًا، في النضال، أو كانوا يؤولون إلى التعذيب في السجون الإسرائيلية. وكان واجبه أن يحكي للعالم عن الثورة الفلسطينية. وحسب كلمات جريدة الدايلي ستار في عددها الصادر في ٩ تموز ١٩٧٢، فإن «غسان»:

كان المقاتل الذي لم يطلق رصاصة واحدة. كان سلاحه قلماً، وميدانه صفحات الجرائد. لكنه أذى عدوه أكثر من رتل من المقاتلين.

وأثناء اختطاف «الجبهة الشعبية» لأربع طائرات غربية، لم نر غسان طوال أكثر من أسبوع. وكانت تلك أكثر فتراته انشغالاً في حياته الفاعلة على صعيد الإعلام. وكان قد عاد من عمّان على متن الرحلة الأخيرة إلى بيروت، عشية الأهلوال رهيبية التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني وحركة المقاومة في الأردن.

لئن عجز المثات من المراسلين الأجانب الذين ملأوا مكتب الهدف - وقد غدا أسطورياً آنذاك - عن إجبار غسان على القيام بحوار معهم، فذلك لأن إجاباته قد كانت على الدوام شاقبة حادة دقيقة. ولعل السبب الرئيسي لذلك يكمن في أن القضية التي كان يدافع عنها - قضية النضال الثوري الفلسطيني - قضية عادلة. لقد زارنا الكثير من الصحفيين وغير الصحفيين من أجل محاولة فهم صادق لأزمة الشرق الأوسط؛ وقد عاد كثير منهم إلينا، وبعضهم صاروا من أصدقائنا الشخصيين.

لقد كان غسان واحداً من أولئك الذين قاتلوا بإخلاص في سبيل تحويل حركة المقاومة من حركة تحرر وطني فلسطيني إلى حركة قومية عربية ثورية اشتراكية يشكل تحرير فلسطين مكوناً أساسياً فيها. وشدد دائماً على أن المشكلة الفلسطينية لن تحل بمعزل عن وضع العالم العربي الاجتماعي والسياسي العام.

وعلى الرغم من احتجاجات نقابات الكتاب والصحفيين، فقد سجن غسان في تشرين الثاني عام ١٩٧١ بسبب مقالة في الهدف تحدّث عن نظام رجعي في بلد عربي معين. وسجّلت الصحافة اللبنانية احتجاجها على سجن غسان من خلال المقالات والافتتاحيات.

وبسبب مرضه، فقد أمضى وقته في مستشفى السجن، وتسنى له مطالعة بعض مسرحيات ستيندبرغ فضلاً عن رواية طويلة للكاتب الايسلندي الحائز جائزة نوبل هالدور لاكسنس. لكن لم يُتَح لغسان بشكل عام أن يرتاح. فقد كان عليه أن يعمل، فكتب جزءاً من روايته الطويلة غير المكتملة التي تحكي عن فلسطين. هذه الرواية العاشق - التي كان يريد أن يكتب فيها عن تاريخ النضال الفلسطيني منذ بداياته ضد السلطات البريطانية والقوات الصهيونية حتى النضال الثوري الراهن من أجل تحرير فلسطين - قد كانت في باله سنوات متعدّدة. ولقد أجرى مقابلات مع فلسطينيين من جميع أنحاء فلسطين، في المخيمات وفي غير المخيمات؛ وقابل المقاتلين الذين شاركوا في الثورة الفلسطينية بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩ والذين لا يزالون يقاتلون. وكان ينوي أن ينتهي من كتابة العاشق خلال صيف ١٩٧٢. وقد نُشر جزء منها. وحسب القراء، فإنها عمل قوي ومؤثر.

وكان إلى جانب الكتابة، يرسم كثيراً، ويرسم الجياد أكثر ما يرسم. ولعب الحصان دوراً هاماً في بعض قصصه ورواياته. كان يقول إن الحصان بالنسبة لنا - نحن العرب - يرمز إلى الجمال والشجاعة والأمانة والذكاء والصدق والحرية. وبالنسبة لي، فقد حاز غسان كل تلك المزايا. أمّا جياده - التي رسم أكثر من عشرين منها

في الأعوام الأخيرة التي سبقت رحيله - فهي معلّقة الآن على جدران بيوت عائلتنا وأصدقائنا في اسكندنيا وبلدان العربية، وعلى جدران بيوت الحراس والأطباء والمرضات الذين تعرّف إليهم في مستشفى السجن.

في مذهبتنا لم يشكّل عائقاً في علاقتنا، لكوننا قد تبيننا وجهة نظر واحدة في الدين. وفي عام ١٩٦٤ تُرجمت الباب إلى الفرنسية ونُشرت في المجلة الأدبية L'Orient الصادرة في باريس.

تجلى حبّ غسان للأطفال في مجموعته القصصية عالم ليس لنا (١٩٦٥). وقد أهداها لـ «فايزوليس». وفي العام ذاته نشر أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، وقد كانت تلك المرة الأولى التي كشفت للعالم العربي وجود شعراء فلسطينيين عرب مصمّين وأفوايا في «اسرائيل». من بين هؤلاء الشعراء الذين عرّف الكتاب بهم: محمود درويش، سميح القاسم، توفيق زياد، وغيرهم ممن اشتهروا لاحقاً في العالم العربي وبلدان أخرى.

عام ١٩٦٩ كتب غسان أم سعد. وأم سعد صديقة عزيزة وقديمة، وكانت ترمز بالنسبة لغسان إلى المرأة الفلسطينية في المخيم وإلى الطبقة العاملة. والكتاب يتحدّث عنها ويتحدّث مباشرة إلى الناس الذين تمثّلهم. وفي الحوار الذي يجري بينه وبين أم سعد، تكون المرأة الأمية هي التي تتحدّث، في حين يستمع المثقف وي طرح الأسئلة.

نضج غسان على الصعيد الماركسي أول ما نضج من خلال إنتاجه الأدبي. وأم سعد قد كتبها روائي ماركسي؛ غير أنه كان قد نما إيديولوجياً منذ بدايات مجلّة فلسطين. فما إن حلّت سنواته الأخيرة حتّى كان قد غدا محلاً ماركسياً كذلك.

وخلت سنة ١٩٧٠ روايته الأخيرة عائداً إلى حيفا، لكنّه ترك وراءه روايتين غير منجزتين ومسرحية غير منشورة. إنه لما لا شكّ فيه أن «غسان» قد كان كاتباً موهوباً جداً، وهذا ما أقرّ به العالم العربي؛ وإني على يقين أن بقية بلدان العالم سوف توسّع من إطار ذلك الاعتراف يوماً من الأيام.

لقد قتلوه حين كان لا يزال ينمو؛ وكان خطره عليهم - صحفياً وناطقاً رسمياً وفناناً وإنساناً - أكبر من أن يتحمّلوا وجوده.

لقد كتبت الدايبي ستار في ملحقتها يوم ١٦ تموز ١٩٧٢ تقول: «استخدمت اسرائيل الهجوم على مطار اللد ذريعة لكي تخلق من غسان صورة للرجل المسؤول عن ذلك الهجوم، في حين أنّ مجال عمل كنفاني داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم يكن ليحمله أكثر تورطاً في مثل هذه الأعمال من القادة الآخرين. إنّ ما حرّض الاسرائيليين على عملهم حقيقتان: أولاً أنه كان هدفاً أسهل؛ وثانياً أنهم كانوا سيتجاوزون تبرير اغتياله أمام العالم الخارجي إلى الظهور وكأنهم قد نجحوا في الثأر لهجوم اللد». وعلقت الجريدة كذلك بالقول إنّ الصحافة الغربية - ولاسيما دي هامبورغر تسايتونغ



«حصان» بريشة غسان

لقد سار إنتاج غسان الأدبي جنباً إلى جنب مع نشاطاته الصحفية والسياسية. وكان قبل موته بزمن طويل يُعتبر من بين أفضل الكتاب العرب والفلسطينيين. وكان في العادة يبني القصة أو الرواية أو المسرحية في ذهنه؛ ثمّ يكتبها كلّها في زمن قصير، مضيفاً إليها تصحيحات قليلة فيما بعد. وكانت جميع مخطوطاته مكتوبة باليد، ولم يصوّر قطّ أيّاً منها.

في لبنان والعالم العربي بشكل عام، يُمنع المرء من مساءلة الدين والمذهبية، لكن غسان في مسرحية الباب قام بمثل تلك المساءلة من خلال مغزى عربي ماورائي يعنى بالدين والوجودية. وبالمناسبة، فإنّه على الرغم من كونه مسلماً ومن كوني مسيحية، فإنّ هذا الاختلاف

جاءتني من عائلتنا، ومن حركة المقاومة الفلسطينية، ومن جيراننا، ومن أصدقائنا المعروفين وغير المعروفين المنتشرين في أنحاء العالم، قد ساعدتني خلال هذه الفترة. غير أنه لايزال من المستحيل أن أصدق، أو أن يصدق الأطفال، أن حبيبنا غسان وعزيزتنا لميس ليسا معنا الآن.

حدث الاغتيال صباح السبت في الثامن من تموز. قبله بيوم واحد، اصطحبنا غسان - أنا وفايز ولميس والأطفال - إلى شاطئ

ولاستامبيا، والدايلي مايل - قد ساعدت على تنفيذ خطة الاسرائيليين بنشرها أخباراً ملفقة عن تورط غسان في هجوم اللد، وبذلك تتحمل تلك الصحافة مسؤولية ما عمّا حدث.

ولكن لماذا كان ينبغي عليهم أن يقتلوا غسان بمثل هذه الطريقة؟ «لقد كان أشبه بجبل، والجبل لا يدمره إلا الديناميت»؛ هذا ما كتبه صحيفة بيروتية عنه.

عقب الاغتيال بساعة واحدة فقط أذاع راديو اسرائيل أن الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قد قُتل، مع زوجته،



مشهد من مسيرة تشييع غسان كنفاني. من اليسار إلى اليمين: د. كلوفيس مقصود، الشهيد الشاعر كمال ناصر، الشهيد رياض طه نقيب الصحافة اللبنانية، أحد السفراء، سفير اليمن الديمقراطي (وقد قُتل كذلك)

البحر. كنا ثمانية في السيارة. وكان من الممكن لحادث التفجير أن يحصل آنذاك... تلك العشيّة، وصل إلى البيت باكراً، وهو ما كان قد فعله طوال أسبوعين كاملين.

إنّ حبّ الحياة يحتمّ العنف. لم يكن غسان من دعاة اللأعنف على غير طائل. لقد قُتل في قلب الصراع، كما قتل من قبل كارل ليكنخت، وروزا لوكسمبورغ، وأرنست ثالمان، ولومومبا، وشي غيقارا. ومثلها أحبّ هؤلاء الحياة، أحبها هو. ومثلهم، رأى حتمية العنف الثوري في الدفاع عن النفس ضدّ قهر الطبقات المستغلة. وبالرغم من التهديدات المتكررة التي تعرّض لها فإنه لم يُفهر.

بعد انفجار سيّارتها بقنبلة موقوتة.

هل راقبنا القتلُ زمناً طويلاً؟ هل علموا أنني كنت معتادة على الذهاب إلى وسط المدينة مع زوجي كلّ يوم سبت؟ لقد كنتُ أعمل طوال الأسبوع في مدرسة للأطفال المتخلفين عقلياً، وكان ذلك السبت هو السبت الوحيد الذي لم أذهب فيه مع غسان إلى العاصمة. هل لاحظ القتلُ أنّ المرآب قد كان ملعباً لجميع أطفال البناية؟ كان الأطفال قد غادروه قبيل الانفجار. ولو أنّ السيارة انفجرت داخل المرآب لتدمر جزء من البناية دماراً كلياً.

أنا اليوم أرملة لما يقرب العام. إنّ المساعدة المعنوية العظيمة التي



غسان وميس

لقد بدأت نشاطات غسان الأدبية في الحقيقة بكتاب صغير أهدها إلى ميس. كانت ميس طيلة حياته عروس شعره؛ ولقد قُتلا، ذلك السبت، بعد سبعة عشر عاماً، بالقبلة ذاتها. وحين حاولت، بعد الماتم، أن أواسي «حسين» قال: «لقد أحببت غسان على الدوام - وكان موتها معه هديتها إليه.» كان غسان يرسل بكتاب إلى ميس كل عام تقريباً، ولا يكتبه إلا لها. وكانت كتبه هذه مكتوبة باليد، ومقرونة برسوم توضيحية من رسوماته هو.

ولئن كان لغسان الكثير من الأعداء السياسيين فإنه لم يكن لديه أعداء شخصيون. بل على العكس من ذلك، فقد كان محبوباً ومحترماً من قبل أولئك الذين اختلف معهم بالذات. وغالباً ما التقى أعداؤه به؛ ولحقوا به إلى المقبرة، واستقبلتهم في منزلنا حين جاءوا ليعربوا عن تعاطفهم معنا.

لقد أميل قتلة غسان في نشر الاستسلام في صفوف اللاجئين الفلسطينيين وأملوا في شق حركة المقاومة الفلسطينية. لكنهم لم يحصدوا إلا النقيض. فلقد فهم الناس عظمة غسان، وأحبوه، وأظهروا حبهم هذا برص صفوفهم بعضها إلى بعض.

لقد أجبرت حركة التحرير الفلسطينية على الرد على العنف بالعنف؛ ضنحت بأرواحها في صراع غير متكافئ وأجبرت على مواجهة الموت كل يوم. وحين سأل مراسل غربي «غسان» قبيل استشهاده عما إذا كان الموت يعني شيئاً بالنسبة له، أجاب:

«بالطبع. إن الموت يعني الكثير بالنسبة لي. المهم أن نعرف لماذا. التضحية بالنفس في إطار الفعل الثوري تعبير عن الفهم الأسمى للحياة وللصراع من أجل جعل الحياة مكاناً جديراً بالإنسان. إن حب المرء للحياة يصبح ضمن ذلك الإطار حباً لحياة جماهير شعبه، ورفضاً لأن تستمر حياة هذه الجماهير مليئة باليؤس والمعاناة والشدة المستمرة. وهكذا يغدو فهمه للحياة فضيلة اجتماعية، قادرة على إقناع المقاتل الملتزم بأن التضحية بالنفس خلاص حياة الشعب. إن مثل هذه التضحية هي التعبير الأقصى عن التعلق بالحياة.»

كثيراً ما نزور ضريح غسان وميس. إنها مدفونان في ظلال الشجر؛ والأرض جافة وحمرات كثرية فلسطين التي طرد منها شعبها. لقد كان على غسان أن يدفع ثمن نضاله من أجل أن يعطي الشعب الفلسطيني احتمال العودة إلى بيوته في فلسطين - وكانت حياته ذلك الثمن. أحبه الشعب؛ فلقد عبر عن آمالهم وأحلامهم، وأثبت لهم أن الحياة قد تختلف عن يؤس مخيمات اللاجئين.

إن عشرات الألوف الذين لحقوا بغسان إلى قبره في أكبر مظاهرة شعبية منذ موت الرئيس عبد الناصر، قد كانوا من العمال، والفلاحين، والمتقنين، واللاجئين من أبناء المخيمات، وأعضاء من فصائل المقاومة الفلسطينية، وممثلين عن معظم الأحزاب السياسية وأنشطة الحياة العامة. إنهم عينهم الذين اندفعوا بالمشات إلى منزلنا الكائن في ضاحية خلال الأيام التي أعقبت الاغتيال. العمال، المثقفون، الفنانون المعروفون، وممثلو الأحزاب السياسية في جميع أنحاء العالم، عبروا جميعهم عن تعاطفهم مع حركة التحرر ومع عائلته؛ ووعدوا جميعهم في الوقت نفسه بمواصلة النضال الذي أفنى غسان حياته في سبيله.

أحياناً أقضي الصباح في الحديقة الصغيرة التي كان غسان يفخر بها. وأذكر كيف جاء حسين، أبو ميس، سعيداً تلك الأمسية من ذات يوم سبت من أجل أن يخبر ابنته أنها قد قبلت في كلية الطب في عمان وأنه من الممكن أن تلتحق بها بعد انتهاء عطلة الصيف. عندما وصل، كانت ابنته قد ماتت. الآن، حين يتحدث والد الميس عن ابنتها وعن غسان، تلتصع أعينها وتقوى أصواتها. فإنه يههها أن يعرف الآخرون عن ميس وغسان، عن حياتيهما، عن آمالهما التي يتعلق بها الشعب الفلسطيني أجمع رغم تبعثرة في أربع رياح العالم.